قصة الخلط بين الإسلام والفكر الإسلامي

وقف المستشرق الفرنسي المعروف (ماسينيون) بين ثلة من طلابه، يمجد، كعادته، الفكر العقلاني عند المسلمين، والدراسات النقدية التي أينعت على تربتها الفرق الإسلامية المختلفة، ولا سيما المعتزلة.. فقام أحد الطلبة يقول له:

فلماذا لا تعتنق الإسلام ما دمت معجباً بما فيه من أفكار ودراسات عقلانية؟

أجابه ماسينيون في ابتسامة مجاملة ومعاتبة: أي إسلام تقترح عليّ اعتناقه؟.. إسلام المعتزلة، أم المرجئة، أم الجهمية، أم القدرية، أم الشيعة، أم الأشعرية؟

لا شك أنه لم يكن عسيراً على السائل أن يقول له: بوسعك أن تعتنق القاسم المشترك الذي جمع هذه الفئات كلها تحت مظلة الإسلام، ثم أن تختار أقربها إلى هذا الذي أثار إعجابك، وهو ما تسميه الفكر العقلاني، فتعلن عن ولائك لها وانتمائك إليها. أو أن يقول له: بوسعك أن تعتنق الإسلام الجذع الذي كان على عهد رسول الله، أي قبل أن تنبثق عنه هذه الفروع والأغصان.

كما لم يكن خفياً عن ماسينيون نفسه توقع مثل هذه الإجابة المحرجة، عن حيرته المصطنعة.

ولكن لا الطالب شاء إحراجه.. ولا هو كان معنياً بالإسلام وحقيقته، وإنما كان جل اهتمامه خلال دراساته الإسلامية كلها، أن يلفت الأنظار إلى الأفكار الإسلامية المتصارعة بمقدار ما كان حريصاً على حجز الأنظار عن الحقائق الإسلامية ذاتها.

تلك هي الخطة المرسومة المتبعة، عند جل - بل كل - من يفضل أن يخاصم الإسلام من داخل بنيانه!..

ولقد عرفت كثيراً منهم عن قرب، وأصغيت إلى أحاديثهم، وتتبعت مناوراتهم في كثير من الندوات والمؤتمرات، فما رأيت منهم إلا إجماعاً على هذه الخطة المفضلة في الكيد للإسلام، والسعي إلى إدخال الريب في عقول المسلمين.. وبوسعك أن تتنبه من إجماعهم هذا - وهم مختلفو المشارب والأقاليم - إلى أن ثمة من يجمع شملهم وينسق مساعيهم على منهج واحد ويصب جهودهم في تيار متآلف متكامل.

وقد كان «ماسينيون» الذي قضى نحبه في السبعينيات من القرن الماضي واحداً من أبرز من قد عهد إليه بهذه المهمة الكبرى!..

وحديث هذا الفريق من الناس، إنما هو دائماً، عن الإسلام، غير أنهم يصرون إصراراً عجيباً على ألَّا يتورطوا في الحديث عن جوهر الإسلام ذاته، أي من حيث هو حقائق اعتقادية منبثقة عن ظاهرة الوحي المتمثلة في القرآن الذي هو كلام الله بدون ريب، ثم في السنة التي هي وحي غير متلو منزل على محمد عليه الصلاة والسلام الذي هو رسول الله بدون ريب.

وإنما يصرفون حديثهم كله إلى ما يسمى اليوم بالفكر الإسلامي، في محاولة دائبة ألَّا يبرزوا للإسلام وجوداً إلا من خلال نشأة الأفكار الإنسانية التي تبنته!..

والفكر الإسلامي اصطلاح حديث، يُقصَد به جملة الآراء المختلفة المتصارعة، التي تبنتها فئات من الناس حول بعض العقائد الإسلامية وأمور الخلافة وأنظمة الحكم، في ظروف معينة ولأسباب وعوامل خارجية ليست خافية على أي باحث في تاريخ الفرق ونشأتها، ومن المعلوم أن كل فرقة منها جعلت من الآراء التي ابتدعتها أداة شق إلى سبيل فرعي ينفصل متعرجاً عن يمين أو شمال الصراط الإسلامي العريض الذي رسمه كل من كتاب الله وبيان رسول الله، وتلاقى عليه سواد هذه الأمة متمثلة في عامة أصحاب رسول الله وسائر التابعين وجمهرة الذين جاؤوا على أعقابهم.

ولقد حذر البيان الإلهي من الشرود الذي جنح إليه رجال تلك الفرق، بل صوره من خلال هذا التحذير بأبرز صورة وأغرب أسلوب، وذلك إذ يقول الله عز وجل، بعد عرض جامع بين لمجمل المبادئ الإسلامية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٥٣].

وقد زادنا القرآن تعريفاً بأصحاب هذا السبيل فأوضح أنهم أولئك الذين يمتازون بالوسطية في الفهم والسلوك، ويتجنبون الغلو ويبتعدون عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، وهو المنهج

العدل الذي لا يخفى على كل مستبصر بالعقل متحرر عن نوازغ العصبية والأهواء.

فهؤلاء المجندون لمخاصمة الإسلام من داخل بنيانه، يتجاهلون الحقيقة الإسلامية الماثلة في كتاب الله والمفصلة في سنة رسوله، والمتمثلة في النهج التطبيقي والسلوكي البين العريض الذي ما زال يلتقي عليه سواد هذه الأمة وجمهرتها الكبرى جيلاً إثر جيل، منذ عصر النبوة إلى يومنا هذا!.. ثم يجتهدون جهدهم لبعث الآراء والاتجاهات الإسلامية الجانحة المتنوعة من أغوار التاريخ، ويستنفدون جهوداً شاقة لإبراز مظاهر الصراع الفكري القائم فيما بينها، ويحرصون الحرص كله على ألَّا يتجاوز القارئ أو السامع صورة هذا الصراع المحتدم إلى تلمس الحق البين الجاثم من ورائه، ذلك الحق الذي أيدته موازين الوسطية العلمية والمنطقية العادلة، وتلاقى عليه، وما يزال، سواد هذه الأمة وجمهرتها!..

وإنما أمنيتهم من وراء ذلك، أن يذيبوا حقائق الإسلام الراسخة في ضرام تلك الأفكار المتخاصمة فيعود الناس بعد حين، وقد استقر في تصوراتهم أن الإسلام ليس شيئاً أكثر من هذه المزق الفكرية التي لم تنبت إلا في تربة الأمزجة النفسية أو الاجتهادات الفكرية، وإنما ساعد على نموها ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية عابرة!..

وبذلك يتاح لهم أن يقنعوا عامة المسلمين، بأن الإسلام ليس أكثر من عواصف أفكار وأخيلة ثارت ثم خمدت.. فليس فيه من

وراء تلك العواصف رصيد مستقر ولا أساس وطيد!.. وإذا اقتنعوا بذلك، فلا شيء يحول عندئذ بينهم وبين أن يتجاوزوا ماضياً ولت معه رياحه، وأن يقبلوا على حاضر يحمل في طياته الجديد من كل شيء.

تلك هي الخُطة المتبعة عند هؤلاء الناس جميعاً، ولا نشك أنها مرسومة لهم بإحكام، وأنهم مكلفون بتنفيذها بكل ما يملكونه من حيلة وجهد، ولعلنا نكشف عن خفايا ذلك في الوقت المناسب وعلى الصعيد المناسب.

تأمل في هذه العناوين، وهي قليل من كثير:

-تاريخية الفكر العربي الإسلامي.

-تيارات الفكر الإسلامي.

-الفكر السياسي الإسلامي.

-مقالات في الفكر الإسلامي.

-نقد العقل الإسلامي.

إن هذه العناوين - ومعها كثير مثلها - هي عناوين بحوث ومؤلفات، لقلة معروفة من الكاتبين.. وهي جميعها تسير على خط واحد ذي طابع متميز لا اختلاف فيه، يتلخص في هذا الذي أوضحته لك:

١-الحرص الشديد على عدم التورط في الحديث عن جوهر الإسلام بحدِّ ذاته، لا نقداً ولا تأييداً.

٢-إغراق ذهن الباحث المسلم بالحديث عن الفرق الإسلامية

المبتدعة والمتطرفة عن المنهج العدل الذي استقطب سواد المسلمين وجمهرتهم في مختلف العصور، والإطالة في شرح الصراعات الفكرية التي اهتاجت فيما بينها.. وذلك سعياً إلى تذويب أو إخفاء جوهر الإسلام المستقر وراء تلك الصراعات العابرة، بحيث يمكن أن يبثّ في ذهن القارئ المسلم بأن الإسلام ليس له وجود موضوعي مستقل، وإنما هو هذه الحصيلة المتناقضة لتلك الأفكار المتصارعة، وأن تلك الأفكار لم تكن منبثقة عن أكثر من ظروف اجتماعية وسياسية فرضت نفسها حيناً من الدهر.

ما الذي ننكره من هذه الخطة المتبعة لدى هؤلاء الكاتبين بل الموظفين؟.. ولماذا؟..

إننا ننكر من هذه الخطة الأساس الغيبي العجيب الذي أقامها أصحابها عليه، وهو افتراض أن الجدل الذي يثور حول موضوع ما، يوجد قبل ولادة موضوعه، وأن الجدل إنما تبدأ حركاته في فراغ، وليس موضوعه إلا من إفرازاته وآثاره المتناقضة التي تتجمع في أعقابه!!..

أي إن الجدل القائم - مثلاً - بين أصحاب النظريات المختلفة حول قصة النشأة الإنسانية وتطورها، لا يدور حول أي أطروحة علمية ثابتة تتطلب الحل والفهم، ولا يعتمد على أي محور موجود بحدّ ذاته، وبتعبير آخر: إن الجدل في مسألة ما ليس ثمرة لحقيقة موجودة تحتاج إلى فهم، بل الحقيقة ذاتها ليست إلا ثمرة الجدل فيها والبحث عنها!..

ومن نتائج هذا الفهم، ألَّا نبحث عن الحقائق الكونية في

الواقع الخارجي المحيط بنا، بل المطلوب أن نبحث عنها في أدمغة الباحثين وأفكارهم فقط، مهما كانت وهمية أو متناقضة!..

وبناء على ذلك، فإن على الباحث ألَّا يفترض وجود مظاهر مستقلة عن الفكر الإنساني وغير متوقفة في وجودها عليه، اسمها الإسلام، تتمثل في الوحي الإلهي المنزل على رسله وأنبيائه بما يتضمنه من مبادئ وأحكام، بل عليه أن يجزم بأن الإسلام ليس أكثر من مجموعة تلك التصورات الفكرية التي تطارحتها الفرق والجماعات الإسلامية!..

غير أن من المعلوم لكل مثقف أن تصور الجدلية القائمة بين الشيء بحد ذاته والعلم المتعلق به، على هذا النحو، وهم غيبي باطل، لم ينزلق إليه إلا مخرِّفو المذهب المثالي، وهم الذين كابروا وأصروا على زعم أن الإنسان هو معين، بل مصنع، سائر المكونات الماثلة في الظاهر أمام أبصارنا، بل زادوا على ذلك فقالوا: إن الأشياء غير موجودة بشكل مستقل على الصعيد الخارجي، وإنما وجودها الحقيقي محصور في الذهن والوعي فقط!.. وهذا معنى قولهم: لا وجود للشيء في ذاته، وإنما هو «الأنا» المتمثلة في الفكر فقط..

ولكن هل يسير أصحاب هذا المخطط، الذين عقدنا بحثنا هذا للحديث عنهم، على هذا المذهب الذي يجنح إليه متطرفو الفلاسفة المثاليين من أمثال (فخته)؟!..

الذي نعرفه يقيناً أن هؤلاء الذين يسعون إلى تذويب الحقيقة الإسلامية في ضرام الفكر الإسلامي يمعنون في تسخيف

المذهب المثالي ورفضه بمقدار ما يمعنون في الدعوة إلى المذهب المادي والاعتداد به!..

وإنا نعلم يقيناً أن أحداً منهم لا يسمح لنفسه أن يتصور للحظة واحدة أن التاريخ الطبيعي لهذه الخليقة ليس أكثر من مجموعة التصورات الفكرية المتصارعة بشأنه!..

ولكنهم، مع ذلك، يتحولون فجأة إلى تلامذة مخلصين لبركلي وفخته عندما يتحدثون عن الإسلام والفكر الإسلامي!.. ومن منطلق هذا الانتماء المفاجئ إلى أشد المذاهب المثالية تطرفاً يقررون بأن الإسلام من حيث هو حقيقة موضوعية قائمة بذاتها أمر موهوم لا وجود له بين الظواهر الخارجية، وإنما هو مجموعة الأفكار التي أفرزها الجدل القائم بين الفرق الإسلامية، وما الإسلام المتمثل في ظاهرة الوحي الإلهي، المتمثلة بدورها في القرآن والسنة إلا مجرد انعكاس وظلال لتلك الأفكار المتخاصمة!.. ولا ضير في أن يسبق الظل أصله في الوجود، ولو أكثر من قرن من الزمن!..

ولكن.. ترى ما العوامل التي أدت فعلاً إلى ظهور تلك الفرق؟.. وهل كان الإسلام مفقوداً ثم تفرع عنها، أم هي التي كانت مفقودة فتفرعت عنه؟

بوسعنا أن نقول في هذا كلمة موجزة، وإن كنا ننصح بدراسة مفصلة لهذه المسألة، تعتمد على المصادر العلمية الأصيلة، كي يتبين الباحث مدى فرار هؤلاء الذين ألزموا أنفسهم بمخاصمة

الإسلام، عن الحقائق العلمية ومناهجها المنطقية، ومدى التجائهم إلى الختل والتمويه.

ترك رسول الله أصحابه، وهم مجتمعون على كلمة واحدة في فهم الإسلام والانضباط بحقائقه الاعتقادية، وورث التابعون منهم هذا الإجماع والانضباط ذاته. فكان المسلمون خلال هذين العصرين مظهراً تطبيقياً دقيقاً لقوله ﷺ: «لقد تركتكم على بيضاء نقية ظاهرها كباطنها لا يزيغ عنها إلا هالك».

ثم ظهرت العوامل التالية، فكانت هي السبب المباشر لنشأة ما يسمى بالفرق الإسلامية وتهارجها على هامش هذا الإجماع الإسلامي الراسخ الذي أقام رسول الله بيده الشريفة دعائمه:

أولاً - كان كثير ممن دخلوا الإسلام في عصر الفتوحات الإسلامية من ديانات مختلفة، كاليهودية والنصرانية والمانوية والزرادشتية والبراهمة والصابئة.. وكان بينهم كثير من علماء دينهم، فلما ركنوا إلى الإسلام ودرسوا أفكاره وتعاليمه، أخذوا يفكرون في عقائد أديانهم السابقة، ويقارنون بينها وبين الإسلام، ولا ريب أنه كان من بينهم من لا يزال مفتوناً ومعجباً ببعض ما في دينه القديم، فكان ذلك مثار حديث وجدل بينهم وبين كثير من الناس، وسبب اندفاع إلى المقارنة واستثارة وجوه التشابه والخلاف.

ثانياً - كانت الفتوحات أساساً لنشأة حضارة متكاملة المرافق والأركان، وقد كانت المعرفة بفروعها المختلفة الدعامة الأولى فيها، فأعقب ذلك قيام حلقات العلم والبحث في مسائل

وموضوعات شتى.. فلم يكن عندئذ بدٌّ من الخوض في المتشابهات والبحث في غوامض النصوص والآيات، وهو أمر يستدعي الاجتهاد.. ومن شأن الاجتهاد أن يوصل إلى الخلاف، وربما اقتضى ذلك - لعوامل نفسية كالانتصار للذات - لوناً من الابتداع والجنوح عن الحق.

ثالثاً - كان من آثار اتساع الرقعة الإسلامية، أن دخل الآلاف بل الملايين في دين الله أفواجاً، وقد كانوا - كما هو معلوم - ينتمون إلى حضارات ويتمتعون بثقافات مختلفة، فضلاً عما كانوا يتصفون به من أمزجة وأخلاق متنوعة، فظهر بينهم زنادقة أضمروا الباطل الذي كانوا يتبنونه، وستروه بظاهر من الإسلام والانقياد لأحكامه، ثم أخذوا يدسون باطلهم باسم العلم والمنطق كلما سنحت لهم الفرصة، وطبيعي أن يترك ذلك أثراً ما في بعض العقول والأفكار.

رابعاً - أحسّ كثير من علماء المسلمين المتجردين لبيان العقائد الإسلامية بالحاجة إلى الوقوف على المصادر التي يستقي منها الزنادقة وتجار الشبهات حججهم وصناعتهم الجدلية، فاقتضاهم ذلك أن يطلعوا على الفلسفة اليونانية ويقرؤوا المنطق الأرسطاليسي وغيره، وأن يمعنوا النظر في أقوال هؤلاء المبطلين، فبهذا الدافع درس النظّام منطق أرسطو، ودرس أبو الهذيل العلاف أصول الفلسفة اليونانية، ولا شك أن هذا الإقبال المستعجل المفاجئ على الفلسفة، سبَّب هزة واضطراباً في أفكار كثير ممن أقبلوا إليها.

خامساً - الفتنة التي قامت ثم اشتدت بين سيدنا علي ومعاوية ﷺ، ثم أعقبها أذى شديد طاف بكثير من آل بيت رسول الله ﷺ، لقد كان لا بدّ لها أن تقذف بردود فعل قاسية وألوان من التطرف والغلو، كان الخروج على سيدنا علي ﷺ وتكفيره من قِبَل الخوارج أشدّها وأشرسها!..

فهذه العوامل مجتمعة ومتفاعلة، هي التي أدت إلى ظهور الفرق الإسلامية التي برزت على جسم العقيدة الإسلامية بروز الثآليل المتفرقة على جلد إنسان معافى سوي، وإنما ظهر جلّها بدافع من ردود الفعل التي تأتي استجابة عكسية للتطرف والغلو.. فنشأ الفكر الخارجي في تربة الهياج النفسي عندما فوجئ كثير من شيعة علي ﷺ بخدعة التحكيم.. ثم نشأت عقيدة الإرجاء ردَّ فعل معاكساً لبدعة الخوارج.. ثم نشأت فكرة المنزلة بين المنزلتين عند المعتزلة ردّ فعل لتطرف كلتا الفئتين.. ونشأت فكرة إبطال القَدَر تخلُّصاً من جدل الزنادقة الذين كانوا يخاصمون المسلمين بعقيدة القدر ومشكلة الجبر.. ثم نشأت فكرة الجبر ذاتها والخضوع له ردَّ فعل لغلوّ أولئك الذين أبطلوا القدر وأنكروه.. وهكذا[1].

غير أن المهم أن تعلم بأن هذه الفرق المتخاصمة لم تمس من كتلة السواد الإسلامي الأعظم المتمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ومن بعدهم، إلا السطح الخارجي وحده، فلا جرم

(١) راجع إن شئت دراسة مفصلة لهذا البحث كتابنا (المذاهب التوحيدية والأفكار المعاصرة).

أن جمهور المسلمين من المحدثين والفقهاء وعلماء التفسير وعامة الناس، كانوا بعيدين عن هذا العراك والضجيج كله، لا يتبنّون شيئاً من تلك الأفكار المبتدعة، ولكنهم لا يشغلون أنفسهم أيضاً بمخاصمتها والردّ عليها.

ثم إن الله قيّض لجمهور المسلمين إمامين جليلين ظهرا في أواخر القرن الثالث، أحدهما أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الذي ظهر في البصرة، والثاني أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، وظهر بسمرقند.. فلقد قيض الله منهما مدافعاً عن الحق الذي اجتمع عليه سواد الأمة، وكاشفاً عن زيف الانحرافات التي انجرت إليها تلك الفرق وفي مقدمتها المعتزلة، فما لبثت رياح تلك الشذوذات والأهواء أن تبددت واختفت، وما دخل القرن الرابع إلا وقد انجابت الغواشي وتجلت حقائق العقيدة الإسلامية، وعادت ناصعة ساطعة مسورة بسياج العلم والرشد.

وهذا ما ينبهنا إلى أن الإمام الأشعري - كصاحبه الإمام الماتريدي - لم يبتدع لنفسه مذهباً بين تلك المذاهب والفرق، كما يوهم ذلك - عن عمد - أولئك الذين يخاصمون الإسلام من داخل بنيانه، وكما أوهم ذلك كلام المستشرق الفرنسي «ماسينيون» في الحوار الذي افتتحنا به هذا الحديث، وإنما كان عمله محصوراً في إزاحة ركام تلك الشذوذات والأهواء المبتدعة عن الجادة العريضة التي رسمها ورسخها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، حتى عادت واضحة نيرة المعالم والحدود.

وهذا ما أجمع عليه المؤرخون في ترجمة هذا الإمام الجليل.

وأخيراً، فتلك هي قصة الخلط بين الإسلام والفكر الإسلامي، يرسمها ويخطط لها باحثون ومستشرقون غربيون، ويعهد بتنفيذها إلى كتاب وباحثين مسلمين!..

ولكن هل تمكّن المخططون أو المنفذون أن يجندوا قدراً من المنطق والعلم - مهما قل وضؤل - لدعم مخططهم هذا وحمايته من ضياء المنطق والعقل؟..

وهل في المثقفين الأحرار من لا يزداد اعتزازاً بإسلامه ويقيناً بكتاب الله وسنة رسوله، عندما يقف على قصة هذا الخلط، ويتبين الجاثمين وراءها واللاهثين أمامها؟..

ولكنك - وعلى الرغم من كل ما تم بيانه - تجد من يصفق لهذا الخلط وأصحابه وينعتهم بالمتنورين، ويشيح بفكره عن الفَرْق الذي تم بيانه بين الحقائق الإسلامية النازلة وحياً من السماء، والأفكار الدخيلة المتسربة إليه من المخرقين والمفتئتين، ويطلق على عملية التفريق هذه اسم «الظلامية» وعلى القائمين بهذا التفريق اسم «الظلاميين».

إنني أسأل الله أن يقيني وإياك من سائر الآفات، ولا سيما ذاك الذي يسمونه: عمى الألوان.